الأستاذة: خميسي

محاضرة: القصة الأسطورية: دراسة نص (عشبة خضار).

تمهيد:

تُعدّ القصة الأسطورية من أقدم أشكال السرد التي أنتجها الإنسان، إذ ظهرت في المجتمعات الأولى بوصفها أداة رمزية لتفسير العالم وفهم الظواهر الكونية والطبيعية والوجودية التي عجز العقل البشري القديم عن إدراكها إدراكًا علميًا. وقد ارتبطت الأسطورة ارتباطًا وثيقًا بالمقدّس وبالعقائد الدينية البدائية، فكانت جزءًا من منظومة فكرية شاملة تفسّر نشأة الكون، وأصل الإنسان، ومعنى الحياة والموت، والعلاقة بين البشر والقوى الغيبية. ومن هذا المنطلق، لا يمكن النظر إلى القصة الأسطورية بوصفها حكاية خيالية للمتعة، بل بوصفها خطابًا ثقافيًا يعكس رؤية الجماعة الإنسانية للعالم والوجود.

تعريف القصة الأسطورية:

ويذهب الباحثون إلى أن القصة الأسطورية تتميز ببنيتها الرمزية، إذ تعتمد على شخصيات خارقة للعادة، كَالآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال ذوي القدرات الفوق بشرية، وتدور أحداثها في زمن غابر غير محدّد تاريخيًا. كما تتسم لغتها بطابع احتفالي مهيب، يعكس قدسيتها ووظيفتها الطقوسية، وهو ما يجعلها تختلف عن بقية الأنماط السردية الشعبية، مثل الحكاية الخرافية أو العجائبية التي تميل إلى التسلية أو الوعظ الأخلاقي.

وقد عرّف ***حسن نصّار*** الأسطورة بأنها حكاية رمزية ذات طابع مقدّس، نشأت في المجتمعات الأولى بهدف تفسير الكون والوجود والظواهر الطبيعية، وتعكس في جوهرها رؤية الجماعة الإنسانية إلى العالم وعلاقتها بالقوى الغيبية. ويكشف هذا التعريف عن عناصر أساسية تقوم عليها القصة الأسطورية، أولها البعد الرمزي الذي يجعل من الأسطورة نصًا قابلًا للتأويل لا للقراءة الحرفية، وثانيها الطابع المقدّس الذي يربطها بالعقيدة والطقس، وثالثها وظيفتها التفسيرية التي سبقت العلم والفلسفة، ورابعها طابعها الجماعي بوصفها نتاجًا للوعي الجمعي لا لإبداع فردي.

ويُقارب **عبد الحميد بورايو** القصة الأسطورية من زاوية ثقافية، فيرى أنها نص سردي قديم يتداخل فيه المقدّس بالخيالي، ويهدف إلى تفسير الوجود والظواهر الكبرى من خلال بنيات رمزية متكررة. ويؤكد بورايو أن الأسطورة تمثل مرحلة أولى في تشكّل السرد الإنساني، وتختلف عن القصة الخرافية في كونها لا تهدف إلى تقديم عبرة أخلاقية مباشرة، بل إلى بناء تصور كوني شامل يفسّر العلاقة بين الإنسان والعالم.

أما علي البطل فينظر إلى الأسطورة بوصفها خطابًا ثقافيًا سابقًا على الأدب، استُخدم لتنظيم العلاقة بين الإنسان والكون والقوى العليا، وهو ما يجعلها أصلًا من أصول الأجناس السردية اللاحقة. في حين يؤكد فراس السواح أن الأسطورة ليست وهمًا أو خرافة، بل نظامًا فكريًا رمزيًا متكاملًا عبّر من خلاله الإنسان القديم عن قلقه الوجودي وأسئلته الكبرى المتعلقة

بالمصير والخلود والشر والخير، ويبرز هذا الطرح البعد الفلسفي العميق للأسطورة، ويحرّرها من النظرة التبسيطية التي تختزلها في الخيال أو الوهم.

من خلال مقارنة هذه التعريفات، يتضح أن القصة الأسطورية تتأسس على جملة من الخصائص المشتركة، أهمها طابعها الرمزي والمقدّس، ووظيفتها التفسيرية، وارتباطها بالوعي الجمعي. كما يتبيّن أن اختلاف الباحثين لا يكمن في جوهر الأسطورة، بل في زاوية النظر إليها، بين من يركّز على بعدها الديني، ومن يبرز بعدها الثقافي أو الفلسفي.

أنواع القصص الأسطورية:

وتتعدد أنواع القصص الأسطورية بحسب الموضوعات التي تعالجها، فمنها الأساطير الكونية التي تتناول نشأة الكون وخلق الإنسان وتفسير الوجود الأول، ومنها الأساطير الدينية التي تتمحور حول الآلهة وصراعاتها وعلاقتها بالبشر، ومنها الأساطير البطولية التي تسرد ملاحم الأبطال الخارقين وصراعهم مع قوى الشر، كما نجد الأساطير التفسيرية التي تعلل الظواهر الطبيعية، والأساطير الرمزية التي تعكس الصراع الوجودي والنفسي للإنسان.

فالقصة الأسطورية تمثل البنية الأولى للفكر السردي الإنساني، ومخزونًا رمزيًا كثيفًا أسهم في تشكيل الوعي الثقافي والحضاري للبشرية. ودراستها لا تهدف إلى استعادة الماضي فحسب، بل إلى فهم كيفية تشكّل المخيال الإنساني وتطوّر أشكال التعبير السردي التي ما تزال تستلهم الأسطورة حتى في الأدب الحديث والمعاصر.

القصة الأسطورية: عشبة خُضار

بعد موت إنكيدو، صديق جلجامش ورفيق بطولاته، سيطر على جلجامش خوف عميق من الموت، وأدرك أن القوة والملك لا يستطيعان أن يقيَا الإنسان من الفناء. عندها ترك مدينته أوروك، وراح يجوب الأرض والبحار باحثًا عن سرّ الخلود، علّه ينجو من المصير الذي أصاب صديقه.

وبعد رحلة طويلة مليئة بالمشاق، وصل جلجامش إلى أوتنابشتم، الرجل الحكيم الذي منحته الآلهة الخلود بعد نجاته من الطوفان العظيم. وقف جلجامش أمامه وسأله عن سرّ الحياة الأبدية، وكيف يمكن للإنسان أن يتغلب على الموت. فأخبره أوتنابشتم أن الخلود ليس من نصيب البشر، غير أنه دلّه، بدافع الشفقة، على نبتة عجيبة تُعرف باسم عشبة خُضار، تنبت في أعماق البحر، ولها قدرة خارقة على إعادة الشباب والقوة إلى من يحصل عليها.

عزم جلجامش على اقتلاع هذه العشبة، فربط الحجارة الثقيلة بقدميه ونزل إلى قاع البحر، حتى بلغ موضعها، واقتلعها بعد عناء شديد. فرح جلجامش بما حقق، وقرّر ألا يستعملها لنفسه وحده، بل أن يحملها إلى مدينة أوروك ليجعل منها هبة لكبار السن، فيردّ إليهم شبابهم، ويخلّد ذكره بعمل نافع للناس، وفي طريق العودة، توقف جلجامش عند نبع ماء ليغتسل ويستريح من عناء الرحلة. وبينما كان منشغلًا، ظهرت حيّة، فشمّت رائحة عشبة خُضار، فاختطفتها ومضت، ثم انسلت عن جلدها في إشارة إلى تجدّدها الدائم. وعندما عاد جلجامش، لم يجد العشبة، فأدرك أن الخلود أفلت منه إلى الأبد.

جلس جلجامش حزينًا، متأملًا مصيره، ثم عاد إلى مدينته وقد تغيّر وعيه، مقتنعًا بأن الإنسان خُلق ليفنى، وأن الخلود الحقيقي لا يكون بالجسد، بل بالأعمال العظيمة والذكر الطيب الذي يبقى بعد الموت.

تحليل القصة الأسطورية: عشبة خُضار

تُجسّد قصة عشبة خُضار إحدى أبرز القضايا الوجودية في الفكر الأسطوري، وهي قلق الإنسان من الموت ورغبته في تجاوز حدود الفناء. فالقصة تنطلق من صدمة الموت، لا من البطولة، مما يجعلها أسطورة تأملية تعالج معنى الحياة أكثر مما تعالج الفعل البطولي.

وتحمل عشبة خُضار دلالة رمزية عميقة، إذ تمثل حلم الخلود الذي يراود الإنسان منذ أقدم العصور. فاللون الأخضر يحيل إلى الحياة والنماء والاستمرار، غير أن وجود العشبة في أعماق البحر يرمز إلى أن الخلود بعيد المنال، وأن الوصول إليه يتطلب مغامرة تتجاوز قدرات الإنسان الطبيعية. ومع ذلك، فإن حصول جلجامش عليها لا يعني امتلاكها، وهو ما يؤكد هشاشة هذا الحلم واستحالته.

أما الحيّة، فتشكّل عنصرًا رمزيًا محوريًا في القصة، إذ تمثل الطبيعة التي تمتلك سرّ التجدد دون وعي أو صراع. فسرقة الحية لعشبة خُضار وانسلاخها من جلدها يقدّمان تفسيرًا أسطوريًا لتجدّد بعض الكائنات، في مقابل عجز الإنسان عن ذلك. وهنا تتجلى المفارقة بين الإنسان الكائن الواعي بموته، والطبيعة التي تتجدد في صمت.

كما تكشف القصة عن تحوّل داخلي في شخصية جلجامش، إذ ينتقل من البحث عن الخلود الجسدي إلى إدراك قيمة الخلود الرمزي. ففقدان عشبة خُضار لا يُعد فشلًا بقدر ما هو لحظة وعي فلسفي، يدرك فيها البطل أن الخلود يتحقق عبر العمل والعمران وبناء الحضارة، لا عبر الجسد الزائل.

وتؤدي القصة وظيفة تفسيرية وفكرية في آن واحد، فهي تفسّر سبب فناء الإنسان، وتقدّم تصورًا أسطوريًا للعلاقة بين الإنسان والموت، كما تعكس رؤية الإنسان القديم إلى الوجود بوصفه صراعًا دائمًا بين الرغبة في البقاء وحتمية الفناء.

وخلاصة القول، فإن قصة عشبة خُضار تمثل نموذجًا ناضجًا للقصة الأسطورية، حيث يتداخل السرد بالرمز، والخيال بالفلسفة، لتقديم رؤية إنسانية عميقة تجعل من الأسطورة خطابًا معرفيًا يعالج أسئلة الوجود الكبرى.